الصلات الحضارية بين وادي النيل وشمال أفريقيا خلال العصر الحجري الحديث: ٨٠٠٠-٣٠٠٠ق.م.

د. عباس سيد أحمد محمد علي

يمثل العصر الحجري لحديث الحقبة الثالثة من حقب العصور الحجرية . وقد ساد في العالم القديم خلال الفترة التي أعقبت نهاية البلايستوسين وانتهي بظهور المدنية في نهاية الألف الرابع ق.م. وقد شهد هذا العصر تحولات جذرية وهائلة كان لها آثار مباشرة وأخرى بعيدة المدى علي مسيرة الحضارة البشرية . فقد شهد هذا العصر صقل الأدوات وصناعة الفخار واستئناس الحيوان وممارسة الزراعة . وبالتالي تحكم الإنسان إلي حد بعيد في مصادر غذائه وابتعاده نسبياً عن حياة الترحال المستمر التي فرضها أسلوب الصيد والجمع اللذين كانا سائدين في الحقب السابقة . فظهرت القرى الزراعية ومعسكرات الرعاة الموسمية . ومن ناحية أخرى فقد تعددت مكونات الوجبة الغذائية وتوازنت وانتظمت أوقات تناولها وتحسنت الأحوال الصحية وشهد العالم زيادة سكانية كبيرة بالحقبة السابقة . وبدورة قاد الاستئناس والزراعة إلي احتكار بعض من عطاء البيئة ، فظهر ما يعرف بالملكية الفردية لتحل مكان "الاشتراكية الطبيعية " التي سادت في مرحلة ما قبل الملكية . وقد أدت الملكية بدورها إلي ظهور الطبقات في المجتمع ، والتي تحولت إلي طبقات اقتصادية اجتماعية . وقاد ذلك إلى ضرورة وجود نظم وقوانين عرفية لتحد من الاعتداء علي الملكية وتنظيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع . وبالطبع كان لابد من وجود شكل من أشكال السلطة تملك المقدرة والأداة التي تمكنها من تنفيذ تلك النظم والقوانين وتسير دفة الحياة .وكانت تلك المعادلة هي الدولة التي شهد العالم مولدها في وادي الرافدين ثم وادي النيل في بداية الألف الثالث ق.م، ثم بعد ذلك في بقية نحاء العالم القديم.

يشير تاريخ البحث الآثارى في مواقع ما قبل التاريخ في ٱوادي النيل وشمال أفريقيا إلي أن العمل قد بدأ هناك مع بداية الحقبة الاستعمارية. وفي الوقت الذي كان فيه وادي النيل تحت سيطرة البريطانيين ، كانت شمال أفريقيا تحت السيطرة ا الإيطالية والفرنسية . ومن الطبيعي أن تكون مسيرة العمل الآثارى خلال تلك الفترة رهينة بالمدارس الفكرة السائدة في تلك الدول وتأثيراتها. وبالتالي تباينت مناهج العمل الحقلي والمعملي وتعددت طرق التصنيف ووسائله.

يشير تاريخ البحث الآثارى في مواقع ما قبل التاريخ في ٱوادي النيل وشمال أفريقيا إلي أن العمل قد بدأ هناك مع بداية الحقبة الاستعمارية. وفي الوقت الذي كان فيه

وادي النيل تحت سيطرة البريطانيين ، كانت شمال أفريقيا تحت السيطرة ا الإيطالية والفرنسية . ومن الطبيعي أن تكون مسيرة العمل الآثارى خلال تلك الفترة رهينة بالمدارس الفكرة السائدة في تلك الدول وتأثيراتها. وبالتالي تباينت مناهج العمل الحقلي والمعملي وتعددت طرق التصنيف ووسائله.

لقد تركزت الأعمال الأثرية الخاصة بالفترة قيد البحث في وادي النيل، حتى عهد قريب، علي ضفتي الوادي، علي امتداد شريط ضيق، لا يتجاوز ربما عشرة كيلو مترات علي الجانبين. وقد كانت المواقع في جنوب الوادي أحسن حظًا من مثيلاتها في الشمال، بحكم أن الكثافة السكانية في الشمال والاستغلال المكثف للأرض علي ضفتي النيل قد ذهبت بالكثير، إن لم يكن بالغالب الأعم، من مواقع العصر الحجري الحديث، وغيرها من مواقع الحضارات القديمة. أما بالنسبة للمناطق إلى الشرق والغرب من مجرى النيل في شمال وجنوب الوادي فقد احتفظت بالمواقع الأثرية لظروف تاريخية، من أهمها أن المنطقة قد دخلت في فترة جفاف منذ منتصف الألف الثالث ق.م مما حصر النشاط البشري الحديث علي ضفاف الوادي وفي واحات متباعدة. وهنا ينعكس الأمر حيث كان نصيب المواقع من البقاء والحفاظ في شمال الوادي، إذ استثنينا العوامل الطبيعية ،أفضل من مثيلاتها في الجنوب .

أما في شمال أفريقيا، جنوب ساحل البحر الأبيض المتوسط ،فإن المنطقة قد شهدت حركة بشرية دائبة خلال العصر المطير. غير أن فترة الجفاف اللاحقة قد حدت كثيرًا من تلك الحركة، حين شحت البيئة وارتحل النبات والحيوان والإنسان عنها واتسعت الصحراء وبقيت مواقع المستوطنات ومعسكرات الرعي القديمة تغطي سطحها.

كشفت المرحلة المبكرة من البحث الآثارى (النصف الأول من القرن العشرين) عن كم من مواقع العصر الحجري الحديث في وادي النيل وشمال أفريقيا. ففي وادي النيل كشفت مواقع في منطقة الخرطوم والشلال الثاني والبدارى ونقادة في صعيد مصر وواحة الفيوم. كذلك عرفت مواقع في الصحراء الليبية وجنوب الجزائر والمغرب وموريتانيا، (شكل١) .

ثم كانت حملة آثار النوبة التي شكلت نقلة حقيقية للعمل الآثارى في وادي النيل . تلك الحملة التي اشترك فيها عدد كبير من البعثات من عدة دول. وقد جاءت بأثريين وجيولوجيين وانثروبولوجين وعلماء حيوان ونبات من مدارس فكرية مختلفة وبناهج وأساليب مختلفة. ليس ذلك فحسب ، بل إن نتائج تلك الأعمال وما طرحته من تساؤلات، رغم أنها لم تنشر بكاملها، قد شجعت الكثير من البعثات العاملة في المنطقة وغيرها، لتواصل العمل في المناطق إلي الشمال والجنوب والشرق والغرب من المنطقة التي غمرتها لاحقًا مياه بحيرة السد.

كذلك تواصل العمل الذي بدأه الإيطاليون والفرنسيون في الصحراء في ليبيا والجزائر والمغرب وموريتانيا.

قبيل طرق تفاصيل الصلات الحضارية بين هذه المناطق علينا أن ننظر بشكل عارض إلي المسرح الجغرافي الذي شهد قيام واستمرار واضمحلال تلك الحضارات.

إننا أمام منطقة تمتد لنحو ٦٠٠٠ كم من الشرق إلي الغرب ونحو ٢٥٠٠كم من الشمال إلي الجنوب. تتباين تضاريس هذه المنطقة. فهي وإن اتحدت في بنيتها الجيولوجية القديمة إلا أن ظواهر السطح والجيومورفولوجيا تعكس اختلافات نتجت عن أحداث جيولوجيه ومناخية خلال الحقب الجيولوجيه المتأخرة(شكل١)

تحوى المنطقة حاليًا مصدرًا واحدًا للمياه هو نهر النيل الذي ينبع من بحيرات شرق أفريقيا وتغذية الأمطار الغزيرة التي تهطل علي الهضبة الأثيوبية سنويًا. عدا ذلك تخلو المنطقة بكاملها من مصدر دائم للمياه، وتمتد صحراء علي مسافة هائلة تغطيها طبقات صخرية أحيانًا وكثبان رملية حينًا. وتتخللها مرتفعات وهضاب تعلو أحيانًا لآلاف الأقدام في مناطق تبستي وأحجار وتسيلى وعير وخلافها. وبحكم بيئتها الصحراوية الحالية فإن المنطقة بكاملها ، بعيداً عن النيل ، تكاد تخلو من أية مستوطنات بشرية . وفي معظمها لا تستقبل أية أمطار في الوقت الحالي .

أما خلال الفترات الأولي من حقبة الهولوسين المطيرة والتي تدور فيها أحداث هذا البحث منذ نحو ١٠,٠٠٠ ـ ٢٥٠٠ ق.م ، فقد كان الحال بخلاف ذلك كانت خطوط المطر تمتد نحو ٤٠٠ كم شمال مواقعها الحالية بالنسبة لمنطقة السافانا و ٤٠٠ كم جنوب مواقعها الحالية بالنسبة لخطوط البحر الأبيض المتوسط .

وبالتالي كانت الصحراء تنحصر في نطاق ضيق للغاية (شكل ٢) . فالمخلفات العظمية للحيوانات والمخلفات النباتية وبقايا المحار والقواقع والدراسات الجيومورفولوجيه وطبيعة الاستيطان كلها تشير إلي أن المنطقة كانت تتمتع بوجه عام بعصور مطيرة ورطبة، وإن تخللتها بعض الفترات الجافة. فمرتفعات تبستى وتسيلي مثلاً تتمتع بهطول أمطار لايتجاوز ٥٠ مم في العام في أحسن حالتها في الوقت الذي كان يسقط عليها نحو ٢٠٠مم خلال الفترة من ٦٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ ق.م. كانت مرتفعات تبستى وتسيلي وأحجار وغيرها تستقبل هذا الكم من الأمطار. وبحكم كونها مناطق صخرية تحول دون تسرب المياه إلى العمق، فقد تكونت الأدوية التي تصب في منخفضات تتحول إلي واحات وافرة المياه وغنية ببيئتها النباتية والحيوانية. ومع وفرة الكهوف والملاجئ الصخرية في تلك المرتفعات تصبح المنطقة جاذبة للاستيطان البشرى.

وتشير دراسات حديثة إلي أن وادي هور (أو النهر الأصفر) ،وهو مجرى مائي قديم في غرب السودان يعاني من جفاف تام في الوقت الحالي ، كان أحد فروع

نهر النيل، حيث ينبع من مرتفعات تشاد؟ ويسير إلي الشمال الشرقي ليلتقي بالمجرى الرئيسي لنهر النيل في منطقة دنقلا (شكل١)[١] وقد بدأ جفافه نحو ٢٥٠٠ ق.م.

شهدت حقبة الهولوسين فترتي جفاف نسبى أحدهما بين الألف السابع والسادس ق.م ، والثانية بدأت نحو منتصف الألف الثالث ق.م، واستمرت في شح تدريجي إلى أن وصلت بالمنطقة إلى ما هي عليه اليوم. ولا شك أن تلك الأحداث قد انعكست علي المسيرة الحضارية للجماعات البشرية التي عاشت في المنطقة .

بطبيعة الحال فإن منطقة بهذا الاتساع لابد وأن تحوى تبايًنا في بيئتها، حتى في العهود المطيرة، فهي تحوى بيئة نهرية وسهولاً وواحات وهضاب ومرتفعات جبلية. هذا التباين البيئي لابد وأن ينعكس علي التكيف والتأقلم البشرى. وبالتالي نتوقع أن تعكس المخلفات الحضارية اختلافًا في الأدوات والمشغولات لتساير ذلك التباين إلا أن ذلك بالطبع لا يتعارض مع وجود سمات بين أقاليم تلك المنطقة.

خلال نصف القرن المنصرم استعمل الأثريون المهتمون بالحقبة قيد البحث عبارة "العصر الحجري الحديث ذو التقاليد السودانية" The Neolithic of Sudanese Tradition[2] لتغطي نمطاً حضاريًا ساد بين الهضبة الأثيوبية والساحل الغربي لإفريقيا وعلي امتداد فترة زمنية تمتد من الألف الثامن وحتى منتصف الألف الثالث ق.م. ورغم التباين الحضاري الجزئي علي امتداد تلك المساحة والزمن إلا أن ثمة ظواهر مشتركة طغت علي أوجه الاختلاف، مما قاد الي اعتبار المنطقة وكأنها تمثل وحدة حضارية.

سنعرض هنا لظاهرتين من الظواهر التي وسمت العصر الحجري الحديث، وهما إنتاج الفخار واستئناس الحيوان لعلهما يلقيان بعض الضوء علي الصلات الحضارية بين وادي النيل وشمال أفريقيا قيد البحث. وبحكم أن الضأن والماعز هما حيوانات أسيوية الأصل وفدت إلى وادي النيل وشمال أفريقيا في أشكالها المستأنسة، فسيقصر تناولها في موضوع الاستئناس هنا علي الأبقار بحكم أن أصولها البرية قد عرفت في وادي النيل وشمال أفريقيا تمامًا كما عرفتها آسيا وأوربا[٣] .

بحكم السبق في الأعمال الأثرية الخاصة بالحقبة قيد البحث في جنوب وادي النيل فإن مواقع منطقة الخرطوم اعتبرت هي المواقع الأساس Type Sites ، لحضارة غطت الفترة والمنطقة قيد البحث. تتشكل هذه الحضارة من مرحلتين، عرفت بأسماء مواقعها الأساسية: المرحلة الأولي هي حضارة الخرطوم التي اشتقت اسمها من موقع الخرطوم القديمة، في وشط مدينة الخرطوم الحالية. والمرحلة الثانية هي حضارة الشهيناب التي اشتقت اسمها من موقع الشهيناب علي مساحة ٣٠كم شمال الخرطوم

---

[١] Gabriel, B. 1981 "Die Ostiche Zentralsahara im Holozan Klima, Landshaft and Kulfuren" Prehistoire Africane 17(1), p39-51

[٢] Camps. 1974, les civilizations prehistoriques de l'Afrique du nord Sahare, Paris

[3] Epstin, H, 1971 The Origin of the Domestic Arimals of Africa, New York.

(شكل١) وقد قام بالتنقيب في هذه المواقع البريطاني آركل ، مدير إدارة الآثار السودانية وقتها.

الفخار

تميزت الحقبة المبكرة من حضارة الخرطوم، التي سادت بين الألف الثامن ومنتصف الألف الخامس ق.م. بفخار جيد الصنع، ذى عجينه مخلوطة بالمايكا وحبيبات الكوارتز، ومزخرف بخطوط مموجة متصلة أو متقطعة(شكل٣) وتحوي الأدوات الحجرية نسبة عالية من المكشاط والمناجل والأهلة والدبابيس الحجرية المرتكزة علي الشظايا. أما الأدوات العظمية فقد شملت المخارز والخطاطيف ، إلى جانب أدوات الطحن. وقد كيفت تلك الجماعات حياتها علي بيئة معتمدين علي الصيد النهري والبرى وجمع الفاكهة والثمار الاستوائية [٤].

أما المرحلة الثانية التي امتدت من منتصف الألف الخامس وحتى منتصف الألف الثالث ق.م. والتي يمثلها موقع الشهيناب ومواقع أخري، فقد تميزت بفخار ذى سمك رفيع جيد البنية ومصقول ومزخرف بخطوط متصلة ومثلثات . وتميزت أدواتها بأنواع من الأزاميل العظمية والحجرية، كما عرفت هذه المرحلة الحيوانات المستأنسة من أبقار وماعز وضأن. وهناك بعض الظواهر المشتركة بين حضارتي الخرطوم والشهيناب في بعض أنواع الفخار والأدوات الحجرية[٥].

اثر ذلك اختبرت عدة مواقع أخرى علي نهر النيل في السودان تركزت حول الخرطوم وفي مناطق كوستي وعطبرة ودنقلا ووادي حلفا. ففي منطقة الخرطوم كشف عدد من المواقع عن مخلفات مشابهة لتلك التي عرفت من موقعي الخرطوم والشهيناب، إذ جاء فخار مشابه من مواقع الجيلي والكدرو والسرواب وخلافها[٦].

وفي منطقة كوستي، نحو٣٠٠ كم جنوب الخرطوم، كشفت الأعمال الأثرية في شابونا عن حضارة مشابهة لحضارة الخرطوم تحوى ذات النوع من الفخار والمخلفات العظمية الحيوانية والأدوات الحجرية[٧]، (شكل١)، كما جاءت معثورات مشابهة لحضارة الشهينات من موقع ربك (شكل١)[٨].

[4] Arkell,A.j.1949. Early Khartoum, Oxford University Press, Oxford.

[5] Arkell, A.J. 1953, Shahinab, Oxford University Press, Oxford.

[6] Mohammed-Ali, A.1982, The Neolithic Period in the Sudan, B.A.R.Oxford.

[7] Clark, J. D 1973, "Recent archaeological and geomorphologicalfield studies in the Sudan" Nayame Akuma3:57-64.

[8] Haaland, R-1984,"Cotinuity and discontinuity" N.A.R.vol 17,No1,p93-51.

ومن موقع حول مدينة عطبرة جاءت مجموعات فخارية وأدوات حجرية تحمل خصائص حضارتي الخرطوم القديمة والشهينات من مواقع الدامر وأبو دربين وعنيبس[٩]

وفي منطقة دنقلا كشف المسح الذي تم هناك عن مواقع حضارة كرمكول التي حوت فخارًا مشابهًا تمامًا لفخار المرحلة الأولي من حضارة الخرطوم، إلي جانبَ أنواع الأدوات الحجرية ونسبها. كذلك كشفت مواقع أخرى في المنطقة عن حضارتي تغرس وكارات اللتين حوتا تقنية أدوات وأنواع مشابهة لحضارة الشهيناب(شكل١)[١٠]

أما في منطقة وادي حلفا علي الحدود المصرية السودانية، فإن الأعمال الأثرية التي تمت هناك قبيل قيام السد، فقد كشفت هي الأخرى عن أنواع من الفخار ، في مواقع شامركا ودبيرة، تشابه بعض الفخار الذي عرف من حضارات الخرطوم، وإن لم تحو تلك الأنواع المميزة (شكل١)[١١] .

والي الشرق من النيل في سهل البطانة(شكل) كشفت الأعمال الأثرية هناك في منطقتي شق الدود وخشم القربة عن وجود ذات الأنواع من الفخار وأنواع من الأدوات الحجرية المماثلة علي امتداد طبقات موقع شق الدود[١٢] ، والمواقع حوله[١٣]، وكذلك في مواقع الصاروبا والبطانه.

وفي مصر كشفت موقع حضارات البدارى ونقاده I وII عن تكيف بشرى علي ضفاف النيل خلال الألف الرابع ق.م. حوت الفخار الأحمر ذا الفوهة السوداء BTRW، الذي عرفته الحقب المتأخرة من حضارة الشهيناب ، كما عرفته حضارة المجموعة "أ" في وادي حلفا[١٤].

وفي واحة الفيوم إلى الغرب من القاهرة (شكل١) كان العصر الحجري القديم الأعلى سائدًا حتى نحو ٥٠٠٠ ق.م. وظهرت بواكير العصر الحجري الحديث في الفيوم في نحو ٤٥٠٠ ق.م. بحضارة متقدمة عرفت فخارًا غير مزخرف وأدوات حجرية شملت الأزاميل التي عرفت في الشهيناب وأدلة علي حيوانات مستأنسة مثل

[9] Haaland,R.and A. Abdull Magid,1995, Aqualithic Sites along the River Nile and the Atbara.Alma Mater, Bersen.
[10] 1971,The Prehistory and Geology of . Northern Sudan, Report to N.S.F.
[11] Shimer, J. 1968 "The Khartoum Variant-Industry",in Wendorf (ed): P 768-790.
[12] Mohammed- Ali, A., 1991 "The Mesolithic and Neolithic ceramics from Shaqadud midden", in Marks and Mohamed-Ali (ed): P 65-93.
[13] lamin Y. and A. Khabir "Neolithic Pottery from Survey sites around Shhqadud Cave Archeologie du nil Moyen 2: p 175-184.
[14] Arkell, A. J. and P. Ucko " Review of Predynasic development in Nile Valley ", Curr. Anthro.6: p 145-66.

الضأن والماعز ونباتات مهجنة مثل القمح والشعير[١٥] وجميعها ذات أصول آسيوية(شكل٤).

وفي شرق الصحراء كشف عن العديد من المواقع في مصر والسودان وليبيا. فإلي الغرب من الليل في جنوب مصر في منطقة نبطة والقصيبة تركزت عدد من المواقع حوت فخارًا مشابهًا لفخار الخرطوم المبكر في مرحلة ما عرف بالمرحلتين الوسطي والمتأخرة من العصر الحجري الحديث والتي يعود تاريخها إلي نحو ٦٠٠٠-٤٥٠٠ ق.م. وهو الفخار المعروف بخطوطه المموجة المتصلة أو المتقطعة[١٦] (شكل ٤).

ومن منطقة وادي هور أحد الفروع القديمة للنيل كان فخار الخرطوم المبكر موجوداً هناك في مواقع يعود تاريخها إلي ٤٥٠٠ ق.م، وهو الفخار المموج. أما الأنواع التي راجت في الشهيناب فقد عرفت هناك في نحو ٣٦٥٠ ق.م.[١٧] . وفي منتصف الألف الثالث (نحو ٢٦٠٠ق.م.) سادت مرحلة متأخرة من العصر الحجري الحديث تتميز بفؤوس حجرية مصقولة وفخار ذي خطوط هندسية متقاطعة. هذه الفئوس والأدوات عرفتها حضارة المجموعة "ج" ، في منطقة وادي حلفا علي النيل كما عرفتها منطقة تبستى في جنوب ليبيا وشمال تشاد باسم "الهوهو" غير أنها لم تعرف في وسط الصحراء[١٨] .

ومن مرتفعات تبستي في جنوب ليبيا كشف عن مواقع تحمل خصائص حضارة الخرطوم المبكرة ذات الفخار ذا الخطوط المموجة تؤرخ إلي نحو الألف السادس ق.م(٥٢٣٠-٤٩٥٠ق.م) [١٩]. كذلك كشفت مواقع أخرى في غبرونغ وزوار وبراكو في ذات المنطقة عن مواقع لمجموعات رعوية استعملت الفخار ذى الخطوط الموجة المتقطعة تعود إلي الألف الخامس والسادس ق.م[٢٠]. وتكرر ذات النوع من الفخار في فزان في مواقع تعود إلي الألف السادس ونهاية الألف السابع ق.م[٢١] (شكل ٤).

[15] Wendorf, F. et al, 1970 "Egyptian Prehistory: some new concepts", Science 169: p 1161-1171.
[16] Wendorf, F. and R. Shild 1980 The Prehistory of the Eastern Sahara, Academic Press, New York.
[17] Hassan, F. 1980"Desert Envieoment and Origins of Agriculture in Egypt" Norwegian Archaiological Review 19: p63-76.
[18] Mohammed-Ali, A 1982: (op.cit) p 160-161.
[19] Bailloud, G., 1969"L Evolution des styles ceramiques en Ennedi, "Etudes et Documents Tchadiens Memoires 1 :p31-451.
[20] Gabril, B., 1975, "Neolithic stone places and Paleoecology in the plains of the eastern central Sahara", Paleoecology of Africa, 1x
[21] Mari, F., 1974, "The earliest Saharan rock engravings" Antiquity 48:p 87-92.

ومن طرحة Tin-Turhaفي غرب الصحراء الليبية كشف عن مواقع حوت فخار الخرطوم ذا الخطوط المموجة المتقطعة في تاريخ يعود إلي نحو ٧٢٠٠ ق.م[٢٢] .كذلك عرفت هضبة أحجار في جنوب الجزائر ذات النمط الحضاري، فمن أمكن عرف فخار الخرطوم المبكر في موقع يعود إلي بداية الألف السابع (٦٧٢٠-٦١٠٠ق.م) وكذلك في مواقع أخرى في ذات المنطقة في تمودين (٦١٠٠ق.م) وفي لوني (٦٥٠٠ق.م) .وإلي الغرب من أحجار قليلاً في جنوب الجزائر أرخت أنواع الفخار تلك إلي نحو ٤٦٣٠ق.م [٢٣] (شكل ٤).

كذلك الحال بالنسبة للمرحلة الثانية من حضارة الخرطوم (الشهيناب) فقد عرف فخارًا مشابهاً لفخارها المصقول بزخارفه الهندسية وخطوطه المحزوزة الغائرة وأزاميلة المصقولة في جنوب ليبيا في منطقة فاده وتبستى وإلي الغرب من ذلك في أحجار وفي منيت في تاريخ يعود إلي منتصف الألف الرابع (٣٤٥٠ ق.م) وكذلك في تنيرى إلي الجنوب[٢٤] .

الاستئناس

في موقع الشهيناب الذي يمثل المرحلة الثانية من حضارة الخرطوم حوت المخلفات العظمية الحيوانية علي عظام بقر مستأنس إلي جانب عظام الضأن والماعز في تاريخ يعود إلي منتصف الألف الرابع [٢٥]. وفي الكدرو طغت عظام الأبقار علي الأغنام في الموقع الذي يعود إلي بداية الألف الثالث[٢٦] .

كذلك ظهرت الأبقار المستأنسة في السجل الأثري في مواقع النيل في شمال وادي النيل في مواقع حقبة ما قبل الأسرات وفي الحضارة ومرمدة في نحو ٣٤٠٠ق.م. ومن موقع الفيوم الأساس (كوم و) لم يوجد دليل مباشر علي بقر مستأنس. وقد اقتصر الإستأناس هناك علي الضأن والماعز غير أن مواقع أخرى في منطقة الفيوم كشفت لاحقًا علي عظام أبقار مستأنسة في تاريخ يعود إلي نحو ٣٩٠٠ ق.م[٢٧] (شكل ٥) .

[22] Barich, B, 1987:"Adaptation in Archaelolgy: an example from the Libyan Sahara " in close. A.(ed) Prehistory of Arid North Africa, s.M.U. press, Dallas. P 189-210.
[23] Camps, G. etal, 1973, "Chronologie des civilisations Prehistoriques du Nord de L`Afrique d`apres raidcerbone", Libyca 21: p65-90.
[24] Mohammed-Ali, A. , 1982, (op.cit),p 158-60.
[25] Arkell, A. , 1953 (op.cit).
[26] Krzyzaniak, L., 1984 "The Neolithic habitation at Kadero" in Krzyzaniak, L. and M.Kobusiew(ed) Origin and Early Development of Food-Production Cultures in Northeast Africa, Poznan , p 309-315.
[27] Gautier, A. 1987 "Prehistoric Men and Cattle in North Africa" in close, A. (ed) Prehistory of Arid North Africa, S.M.U. press, p. 163-187.

ومن الصحراء غرب أسان في مصر كشف عن مخلفات عظمية لأبقار في عدد من مواقع نبطة والقصيبة يعود تاريخها إلي نحو ٧٠٠٠- ٥٠٠٠ ق.م. وليس من شك في وجود أبقار مستأنسة في المراحل الأخيرة من تلك الفترة، أى نحو ٥٠٠٠ ق.م [٢٨].

وفي منطقة طن طراحة في غرب ليبيا وسط الصحراء استوطنت جماعات من الرعاة في نحو ٥٤٠٠ ق.م. وحتى ٣٢٦٠ ق.م. وعلي مقربة منها في محاغيق عثر علي عظام بقر مستأنس في طبقة تعود إلي نحو ٤٠٠٠ ق.م[٢٩]. وفي الطبقات العليا التي تؤرخ إلي نحو ٢٧٣٠-١٧٧٠ق.م طغت عظام الأغنام علي الأبقار.

ومن مرتفعات تبستي في جنوب ليبيا كشف كهف غبرونغ عن مخلفات حيوانية شملت البقر المستأنس في تاريخ يعود إلي نحو ٤١٣٠ ق.م. ومن مواقع أخرى في مرتفعات تبستي كشف عن مخلفات لعظام بقر مستأنس يعود إلي الحقبة بين ٥٤٠٠ و ٣٢٠٠ ق.م[٣٠] (شكل ٥).

أما في الجزائر فإن موقع منيت في أحجار فقد كشف عن بقر مست أنس يعود إلي نحو ٣٤٠٠ ق.م. وإلي الغرب من أحجار في ادرار توجد عظام بقر مستأنس يعود تاريخها إلي نحو ٣٥٠٠ ق.م. وحتى ٣٢٠٠ ق.م.

أما مرتفعات تسيلي فالتاريخ الناتج عنها للبقر المستأنس فهو في حدود ٣٤٥٢٠ق.م. والتاريخ من كهف غروت يعود إلي نحو ٤٥٠٠- ٢٤٠٠ ق.م. يشير إلي وجود بقر مستأنس وبري من طبقات المقع التي لم يتمكن من فرزها من الناحية الإستراتغرافية[٣١]

وفي المغرب هناك دليل غير مؤكد علي وجود بقر مستأنس في مغارة الخيل ومغارة الصيفية في أقصى شمال المغرب مقابل جبل طارق، في فترات متأخرة (بعد الألف الرابع) [٣٢]. أما الدليل من موريتانيا في غرب الصحراء فإن البقر المستأنس

[28] Gautier, A. 1984 "Archaeozoology of Bir Kiseiba, Eastern Sahara" in Wenderf, F. and Schild, R(ed), S.M.U. p 49-72.
[29] Barich, B. 1987, op.cit P 200-202.
[30] Gautier, A., 1987, op.cit. P 173-4.
[31] Ibid P 167-171.
[32] Ibid, P 167.

ظهر هناك بعد بداية فترة الجفاف، أى نحو ٢٠٠٠ - ١٥٠٠ق.م. في منطقة دار تشت[٣٣] (شكل ٥).

وإلي الجنوب في مالي عرفت مواقع كاركرشنكات ووادي تلميس Tilmiesi (شكل ٤) الأبقار المستأنسة نحو ٢٠٠٠ ق.م. وعلي حدود مالي والجزائر كشف أحد المواقع عن دليل لبقر مستأنس نحو ٢٧٠٠ ق.م[٣٤].

الاستنتاجات

يشير الدليل الناخى البيئي والأدلة من المخلفات الحضارية التي تمثلت في أنواع مميزة من الفخار وأحيانًا الأدوات الحجرية، ومن المخلفات العظمية الحيوانية لحيوانات برية ومستأنسة إلي عدة أمور، نلخصها فيما يأتي:

١. كان وادي النيل، حول المجرى الرئيسي، والواحات الكبيرة في المناطق الجبلية في الصحراء مناطق وفرة دائمة، أو شبة دائمة بمياه. وبالتالي توفرت ولها بيئة غنية بعطائها النباتي والحيواني علي مدار السنة. هذه المناطق شكلت نلجأ آمناً للإنسان والحيوان والنبات في فترات الجفاف حيث تشح البيئة بعيداً عن تلك المصادر.
٢. بقدر ما تكون مصادر المياه الدائمة، منم أنهار وبحيرات وواحات، مناطق جذب للإنسان والحيوان والنبات في الفترات الجافة، تكون بخلاف ذلك في الفترات المطيرة حيث تتوفر بيئة أكثر ثراء وعطاء من المناطق بعيدًا عن تلك المصدر، سواء بالنسبة للرعاة أو المزارعين أو الصيادين أو جامعي القوت.
٣. بالنسبة لوادي النيل فإن الظروف المناخية المتغيرة خلال الفترة قيد البحث لم تكن لتؤثر بشكل واضح علي مجرى النيل والحد الأدنى من المياه المتوفرة فيه، وبالتالي علي البيئة السائدة علي ضفتيه. وعليه لا تتوقع هجرات بشرية من الشمال إلي الجنوب أو العكس إلي الجنوب أو العكس لأسباب تتعلق بعطاء البيئة أو شحها، رغم استمرارية الاتصال بين تلك المجتمعات.
٤. أما بالنسبة للصحراء وشمال أفريقيا فالأمر بخلاف ذلك، إذ أن التحولات الناخية تؤثر بشكل مباشر علي المجتمعات بعيدًا عن الساحل الشمالي لأفريقيا. فالتحولات المناخية تؤثر علي حجم الصحراء ووفرة المرعي والصيد بعيداً عن الواحات،وبالتالي علي حركة التواصل بين المجتمعات الصحراوية. ففي الوقت الذي تسود فيه ظروف مناخية جيدة تتحرك عن المجموعات السكانية شرقاً وغرباً

[33]Munson, p 1981 "Climatic Chronology of the S.W. Sahara" Paloeoecology of Africa, p 53-60.

[34]Gautier, A, 1987, op.cit, P 168-169.

وتتحرك المجموعات النيلية أيضاً بعيداً عن المجرى حيث وفرة المرعي والأرض والصيد. وتتصل تلك المجموعات ببعضها . وحين تشح البيئة وتجدب المناطق الوسيطة تتراجع تلك المجموعات نحو النيل أو نحو جيوبها الصحراوية في الواحات، حاملة معها ما كسبته من معارف نتيجة اتصالاتها تلك.

٥. في فترات الانقلاق والجفاف تلك، حول المصادر الدائمة تظهر بعض الابتكارات المحلية وتظل حبيسة تلك الجيوب حتى تتحسن الظروف المناخية مرة أخرى ويتم التواصل بين المجموعات البشرية لتنتقل تلك الابتكارات عبرها.

٦. تبدو حقيقة وجود مركز مستقل عن أي تأثيرات من الشرق الأدنى لصناعة الفخار واستئناس الأبقار في وسط الصحراء (جنوب ليبيا وجنوب الجزائر) أمرًا أكثر احتمالاً مما عداه ، انتشرت منه، في الفترات المطيرة، تلك التأثيرات إلي المناطق الأخرى، شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالآ. فالتاريخ الكربوني الناتج من المواقع في كل المنطقة يدعم هذا الاعتقاد، والتاريخ من وسط الصحراء سابق لكل ما عداه، رغم وجود عدد من الدلائل التي تشير إلي مساهمة مبكرة لمنطقة الخرطوم في صناعة الفخار.

٧. إن الشح البيئي الذي بدأ منذ نحو ٢٥٠٠ ق.م. وساد بعدها دفع بالأبقار، التي تتطلب بيئة نباتية أكثر ثراء، إلي الجنوب والشمال حيث تتوفر ظروف بيئية أفضل في أوقات الجفاف وحتى حدود ذبابة التسي تسي.

٨. بناء علي غياب عظام البقر المستأنس في مواقع هواء الفطايح في ليبيا علي الساحل الشمالي لأفريقيا، في وقت عثر فيه علي مخلفات عظمية للضأن والماعز في الموقع، وكذلك الحال بالنسبة لحفريات الفيوم المبكرة، ساد اعتقاد بأن البقر المستأنس قد وفد إلي أفريقيا من الشرق الأدنى. غير أن ظهور الأبقار المستأنسة في وسط الصحراء في وقت سابق لظهورها علي الساحل الأفريقي الشمالي أو شمال وادي النيل ينفي ذلك الاحتمال. خلافًا لكون البقر المستأنس لم يظهر في الشرق الأدنى إلا متأخرًا.

٩. لعل وجود الأطول البرية للبقر المستأنس في أفريقيا وفي وسط الصحراء قد أدى، كما نظن، إلي استئناسها في الجيوب الصحراوية ومن ثم انتقالها إلي المناطق المجاورة عبر الاتصالات بين المجموعات البشرية في الفترات المطيرة. ففي الوقت الذي كانت فيه الحاجة ماسة للاستئناس في الصحراء في فترات الجفاف ، كانت بيئة النيل الغنية ذات الوفرة لا تتعارض لأي ضغط بيئي يفرض الاستئناس.

١٠. بحكم غياب الأصول البرية للضأن والماعز والقمح والشعير في أفريقيا ووجودها في الشرق الأدنى، فإن الأشكال المستأنسة من تلك الحيوانات. والنباتات لابد أن تكون قد وفدت عبر سينا في نحو الألف الخامس ق.م. وواجهت في

أفريقيا ببعض العقبات فالقمح والشعير يحتاجان إلي مناخ ربما لا يتوفر لهما بشكل جيد جنوب دائرة العرض ٢٠، والضأن والماعز احتاجا لبعض الوقت للتكيف علي البيئة الجديدة قبل أن ينتقلا إلي بقية أنحاء القارة. غير أنه في وقت سابق لذلك كانت المجتمعات البشرية في جنوب ليبيا وجنوب الجزائر تجوب الصحراء الحالية بقطعانها من البقر المستأنس وبأنواع من الفخار جيدة اصنع والحرق والزخرف.

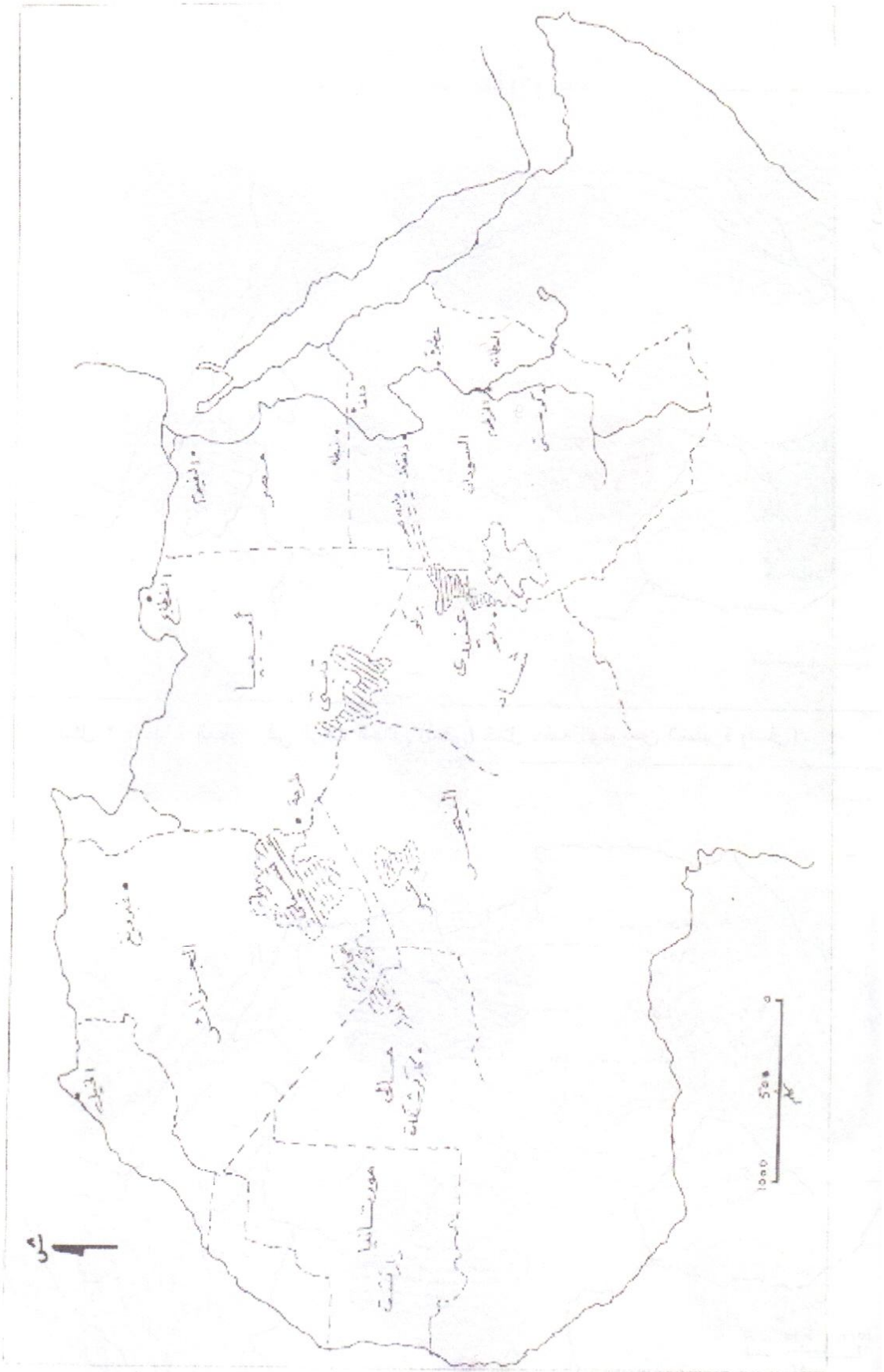

شكل (١) وادى النيل وشمال أفريقيا

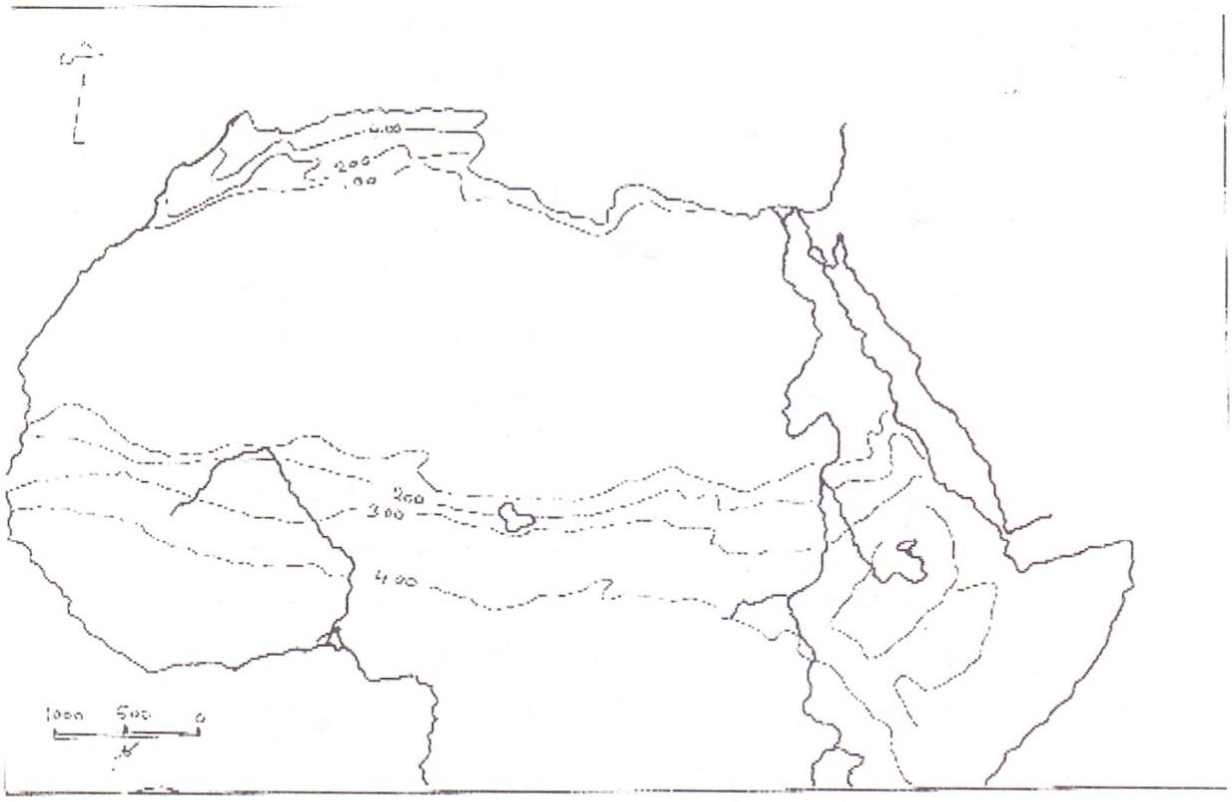

شكل ٢ :خطوط المطر : فى الوقت الحالى (أعلى) خلال حقبة الولوسين المطيرة (اسفل)

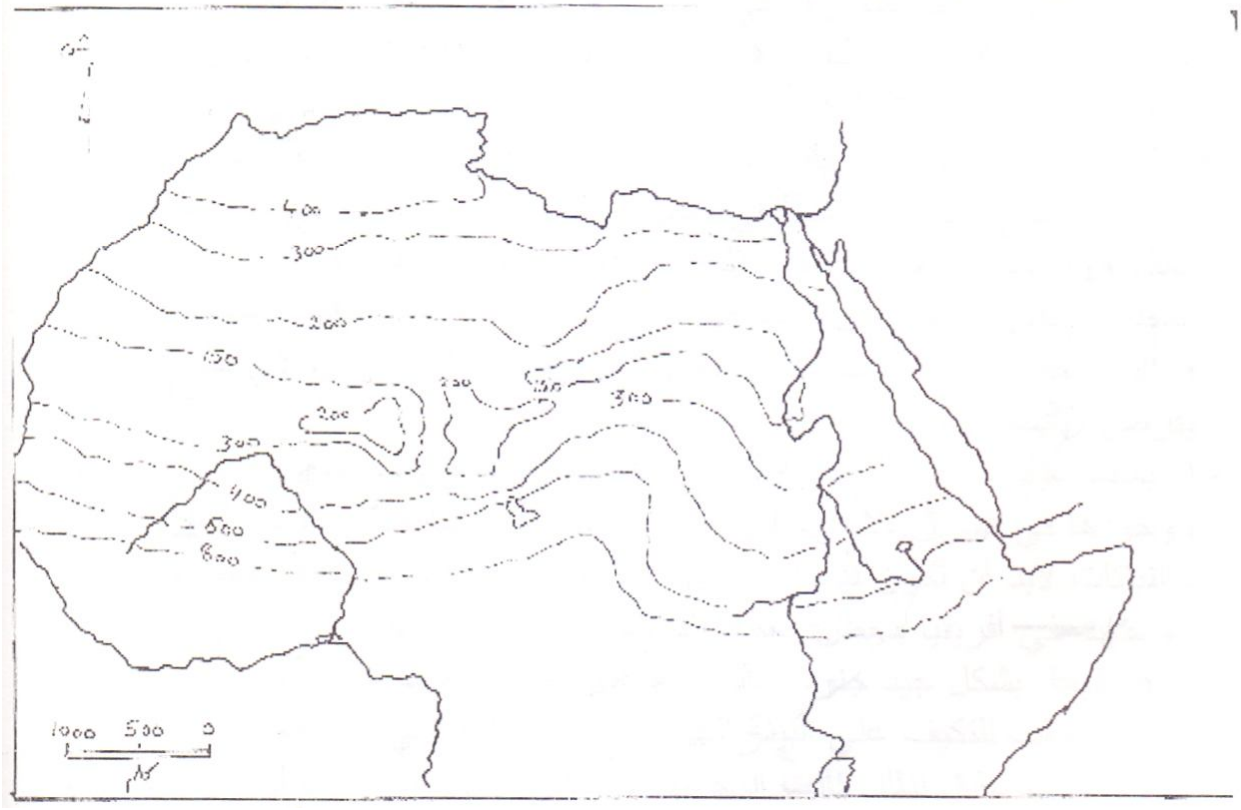

شكل (٣) فخار حضارة الخرطوم

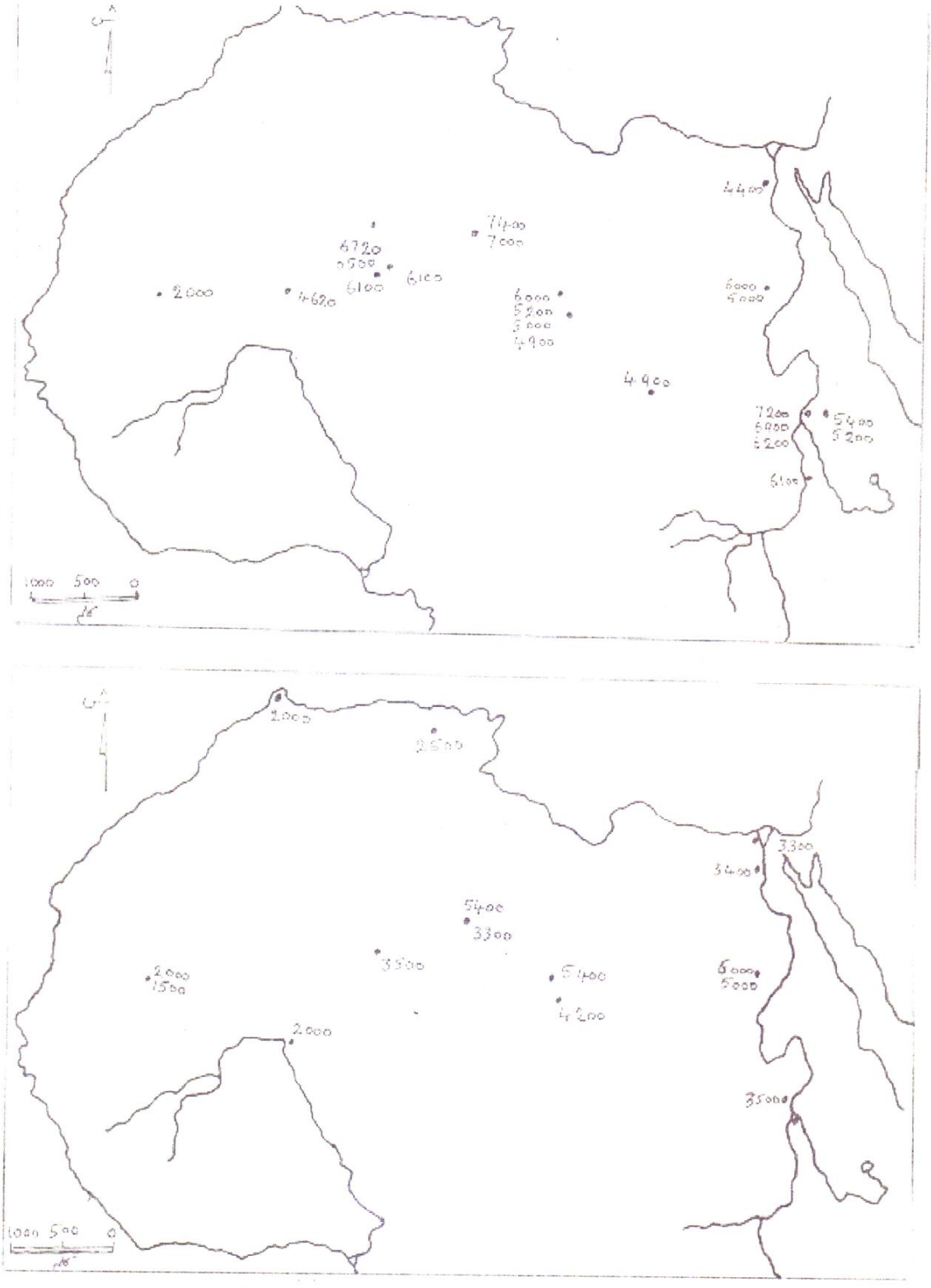

شكل (٥) أقدم مواقع الاستئناس فى وادى النيل وشمال إفريقيا